إيحاءات بديع الزمان
لابن شهيد في التوابع والزوابع

للدكتور شوقي ضيف (*)

بديع الزمان هو أحمد ابن الحسين أصله من همذان بإيران وإليها ينسب توفى سنة ٣٩٨ ولم ينل كاتب فى عصره ما نال من التمجيد والشهرة ، وفيه يقول الثعالبى فى اليتيمة : « هو معجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عُطارد وفرد الدهر وغرة العصرة . لم يُرَ ولم يُرْوَ أن أحدا بلغ مبلغه من لبِّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره» وكان أهم ما راع معاصريه من أدبه مقاماته المشهورة . وقبيل وفاته بنحو ستة عشر عاما ولد بقرطبة فى الأندلس ابن شهيد أحمد بن عبد الملك فى بيت ثراء وعز ومجد ، وتوفى سنة ٤٢٦ وكان شاعرا وناثرا بارعا وفيه يقول ابن بسام :

« نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسَجْع الحمام ، أو جد فزئير الأسد الضَّرْغام ، نظم كما اتسق الدرّ على النحور ونثر كما خلط المسك بالكافور » .

ومن أروع آثار ابن شهيد الأدبية رسالته «التوابع والزوابع» والتابع الجنى والزابعة الشيطان ، وهو يذكر فى صدرها أن صديقا له يسمى أبا بكر بن حزم كان يروعه أدبه روعة لاحدّ لها ، مما جعله يقسم أن له تابعة من الجن تنجده فى فرائده البديعة وزابعة من الشياطين تسعفه وتؤيده . واعترف لصديقه بأن له تابعا من الجن يسمى زهير ابن نُمَيِّر من قبيلة أشجع فى الجن تقابل قبيلة ابن شهيد أشجع العربية فى الإنس ، وأن هذا التابع تراءى له يوما على فرس أدهم بباب مجلسه حين أُرْتج عليه القول فى أثناء مرثية ينظمها فأنشده بيتا حلّ به عُقْدة لسانه فى مرثيته وتحادثا حينا ، وعلّمه أبياتا ينشدها إذا أراد استحضاره ، وأوثب فرسه الحائط وغاب عنه ، فكان ابن شهيد بعد هذا اللقاء لتابعه كلما أُرْتج عليه أو ضاق به مسلك فى الشعر ينشد الأبيات فيتراءى له توًّا فيدرك

(*) ألقى فى الجلسة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ الموافق ١٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م.

بقريحته ما يرغب فيه ويريده ، ويقول ابن شهيد لصاحبه أبي بكر بن حزم : إن صحبته لتابعه تأكدت وأنهما ذات يوم تذاكرا أخبار الشعراء والكتاب القدماء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وأنه سأل تابعه هل يمكن أن يلتقى معه بهم ، فقال له : ينبغى أن أستأذن شيخى من الجن فإن أذن لى حققت لك ما تريد ، وطار عنه إلى شيخه الجنى كلمح بالبصر . وعاد مسرعا وقد أذن له ، فأردف ابن شهيد على فرسه ، وسار بهما كالطائر يجتاب الجوّ فالجو ويقطع الدوّ فالدوّ إلى أن رأى ابن شهيد أرض الجن : أرضا لا كأرض الإنس مكتظة بالشجر عطرة الزهر ، وقال له تابعه : بمن تريد أن نبدأ ، فأجابه ابن شهيد : الكتّاب أولى بالتقديم ولكنى إلى الشعراء أشوق ، فقال له من تريد منهم ؟ قال صاحبَ امرئ القيس ، فأمال تابعه عنان الفرس إلى واد من أودية الجن وصاح : يا عتيبة بن نوفل ومثل لهما فأقسم عليه تابع ابن شهيد بسقط اللوى فحومل ويوم دارة جلجل (وهى مواضع فى المعلقة) إلا ما أنشدتنا من شعرك وسمعتَ من الإنسى صاحبى وعرّفتنا كيف إجازتك له ، وسأله عتيبة أهذا (يريد ابن شهيد) فتاهم ؟ وما لبث أن أنشدهما قصيدة امرئ القيس :

(سَمَالَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا)

حتى أتمها . وسأل ابن شهيد أن ينشده بعض شعره فهمّ بالنكول إجلالا له ، ثم تماسك وأنشده قصيدة حماسية ، فأعجب بها عتيبة وأجازه وغاب عنهما . فسأله تابعه زهير بن نمير من تريد لقاءه بعده ؟ فأجابه صاحبَ طرفة ، فأرسل فرسه قاطعا وادى عُتَيْبة إلى غَيْضَة ملتفة الأشجار . وفيها صاح زهير : يا عنتر بن العجلان حلّ بك زهير وصاحبه ، ويستحلفه بِخَوْلةَ صاحبة طرفة وبما أمضى معها من ليلة إلا استقبلهما ، فبدا لهما فارس جميل الوجه متوشح بسيف ، ورحب بهما . وسأله ابن شهيد أن ينشدهما بعض قصائده ، فأنشدهما لامية قصيرة لطرفة ، وأنشده ابن شهيد خمرية بديعة ، فصاح عنتر قائلا لله أنت اذهب فانك مجاز وغاب عنهما . فسأله زهير من تتوق إلى لقائه ؟ ويلتقيان بأبى الخطّار صاحب قيس ابن الخَطِيم ويحيّيهما ويستنشد ابن شهيد ، وينشده إحدى قصائده ، ويعجب بها و يجيزه ويعدل إلى صاحب أبى تمام وينشده ابن شهيد بعض قصائده ، ومن بينها قصيدة فى رثاء صديقه حسّان بن مالك ويعجب بشعره ويجيزه. ويلتقى مع تابعه زهير بصاحب البحترى ويسمّيه أبا الطبع ، وينشدهما قصيدة له إلى نهايتها ويستنشد ابن شهيد ، فيعارضه بقصيدة بديعة ، ويجيزه . ويسأل تابعه زهيرا أن يلقى به صاحب أبى نواس ، ويقول له زهير إنه بدَيْر حَنَّة منذ أشهر قد غلبت عليه الخمر ، ويركض الفرس إليه ، ويشق سمعهما قرعُ النواقيس ، وأخذا يمران بأديار وكنائس

وحانات حتى انتهيا إلى دَيْر حُنَّة، فوقف زهير ببابه ، وقال سلام على أهل دَيْر حنة فأقبلت نحوهما الرهبان وقد وضعوا فى أوساطهم الزنانير وقبضوا على العكاكيز ، ولحاهم ورءوسهم تشتعل شيبا ، وسألوا زهيرا ما بغيتك ؟ .

قال : حسين الدنان صاحب أبى نواس قالوا إنه عاكف على شراب الخمر منذ عشرة أيام ، ومضوا بهما إلى بيت اصطفَّتْ دِنانه ، به حسين : شيخ طويل الوجه . افترش أضْغاث زَهْر واتكأ على زقّ خمر وبيده كأس كبيرة ، فقال له زهير حياك الله أبا الإحسان ، فتمتم بكلام لا يعقل لغلبة الخمر عليه . ولم يلبث ابن شهيد أن أنشده خمرية من خمرياته ، وكأنما حين سمعها عرفه ، فصاح به أأشجعى أنت ، فقال له ابن شهيد أنا ذاك ، فاستدعى ماء شرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتذر إليه ، وتلطف له طالبا منه أن ينشده بعض شعره ، فأنشده قصيدة له مشهورة فى دَيْر حَنَّة ، وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طربا . وسأل حسين ابن شهيد أن ينشده بعض أشعاره ، فأنشده من غزله الصريح ومراثيه ومجونه وبلغ من طرب الحسين لبعض ما سمع منه أن قام يرقص به ويردده ، وأفاق ، فقال : هذا والله شىء لم نُلْهَمْه نحن ، واستدناه ، فدنا منه ، فقبّله بين عينيه ، وقال له اذهب فإنك مجاز على الرغم من الحاسد الكاره . وقال له تابعه زهير من تشتاق إلى لقائه بعد مَنْ لقيت؟ فقال له خاتمة القوم صاحب أبى الطيب فقال : اشدد له حيازيمك وعَطِّر له نسيمك ، وأمال عنان فرسه نحو طريق طويل ، وجعل الفرس يركض بهما ، وزهير يتأمل آثار فرس بعيدة ، فقال له فيم تتأمل ؟

قال : إنها آثار فرس حارثة بن المغلِّس صاحب المتنبى وهو شغوف بالقنص والصيد ، وانتهيا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كثيب ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عَذَبة صفراء ، فحياه زهير ، فأحسن الرد من مقلة شَوْساء ينظر بمؤخرها تكبرا وتيها ، فعرّفه زهير مقصدى ورغبتى فى إجازته لى ، واستنشده حارثة ، فأنشده قصيدة حماسية من طراز شعره وما به من حكم وشعور بالقوة وحملة على الدهر ورفعه للأراذل الجهلاء . ويعجب بشعره حارثة ، ويقول لزهير : إن امتد به العمر فلا بد أن ينظم الدرّ ، ويجيز ابن شهيد . وبذلك يضع فى ميزانه ضد خصومه إجازات هؤلاء الشعراء الكبار وشهاداتهم له بالتفوق فى الشعر والبراعة فيه .

ويسأل زهير ابن شهيد : من تريد بعد هؤلاء الشعراء؟ فقال له : مل بى إلى الخطباء يريد الكتاب فقد كفانى ما سمعت من أصحاب الشعراء ، فركضا الفرس فى الصباح ، ولقيا فارسا أسرّ إلى زهير ببعض الكلام وتركهما ، فقال زهير لابن شهيد : جمعت لك كتّاب الجن

بمَرْج دَهْمان، وانتهيا إلى المرج، وإذا بناد عظيم وقد تحلّق فرسان الكلام حول شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة، فقال ابن شهيد سرًّا لزهير من هذا الشيخ؟ فأجابه عُتَيْبة بن أرقم صاحب الجاحظ، فقال ليس لى رغبة إلا أن ألقاه وألقى صاحب عبد الحميد الكاتب، فقال له زهير إنه ذلك الشيخ الذى بجانبه، وعرّف زهير عتبة صاحب الجاحظ ميل ابن شهيد إليه، فاستدناه وأخذ فى الكلام معه وأعجب به وقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرم بالسجع، فكلامك أشبه بالشعر منه بالنثر، وقال له ابن شهيد: ليس هذا — أعزك الله — منى جهلا بأمر الكتابة وما فى المماثلة والمقابلة من فضل، وابن شهيد يريد ما تميز به الجاحظ فى كلامه من الازدواج والمماثلة بين العبارات دون محاولة للسجع وقوافيه. ويستمر ابن شهيد قائلا لصاحب الجاحظ إنه إنما يستخدم السجع تمشيا مع فرسان الكلام لزمنه الذين يستحبون السجع على الازدواج، ويصوغ ذلك فى عبارات شبيهة بأسلوب الجاحظ وما يطبعه من الازدواج والمماثلة، ويتدخل صاحب عبد الحميد الكاتب فيقول لصاحب الجاحظ: لا يغرنَّك منه ما تكلف من المماثلة فإن السجع طبعه. ويقول له ابن شهيد لا تعجل، ويصوغ له عبارات من نمط أسلوبه. ويتلطف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد معه ويسألانه أن يقرأ عليهما بعض رسائله، فيقرأ رسالته فى صفة البرد والنار والحطب ويستحسنانها، ثم يقرأ رسالته فى الحلواء، ويختار طائفة من ألوانها مثل الفالوذج وهو حلواء هلامية من الدقيق والسمن وعسل النحل، والخبيص وهو حلواء من التمر والسمن والبيض، والزلابية وهى حلواء من عجين يُقْلى فى الزيت ويُعْقَد بعسل النَّحل، إلى غير ذلك من ألوان يطيل فى وصفها ساجعا سجعا بديعا فى لفظ رشيق، مما جعل صاحبا الجاحظ وعبد الحميد يقولان له: إن لسجعك موضعا من القلب ومكانا من النفس. ويسألانه عمن يطعنون عليه من أبناء جنسه، وعمن هم أشد طعنا عليه؟ فيذكر لهما ثلاثة هم من يسمى أبا محمد وقد دسّ عليه عند الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ — ٤٠٧ هـ) وشخصيته غير معروفة. ومن يسمى أبا بكر، وهو إما أبو بكر بن حزم الذى وجه رسالته إليه، والذى اتهمه بأن له تابعا يؤيده، وإما أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باسم إشكمياط الذى كان يتهمه بسرقة بعض نثره البديع من سابقيه والثالث اللغوى المشهور فى عصره أبو القاسم الإفليلى ويصيح تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، يا أنف الناقة بن مَعْمر، من سكان خَيْبَر — وهو صاحب الإفليلى وتابعه — ويقوم إليهما جِنِّى رَبْعة، اختلط البياض فى شعر رأسه بالسواد مزهوًّا بنفسه، يتعارج فى مشيته، فقالا لابن شهيد: هذا صاحب الإفليلى، وسألاه عن ابن شهيد، فقال: لا أعرف على من قرأ

—وكانوا يتنقصون من يأخذون العلم عن الصحف المكتوبة ، ولا يأخذونه عن الشيوخ— وحين سمع منه ابن شهيد كلمته قال لنفسه : إن لم تُحْرِبْ عن ذاتك ، وتظهر بعض أدواتك وأنت بين فرسان الكلام لم يطرلك بعدما طائر ، وكنت غَرَضا لكل حَجر عابر .

وقال لتابع خصمه الإفْليلى : وأنا أيضا لا أعرف على من قرأت ، فقال له : طارحْنى كتاب الخليل (يقصد معجم العين) أو فناظرْنى على كتاب سيبويه ، ثم قال له : أنا أبو البيان ، فقال له ابن شهيد ساخرا : إنما أنت كمغن وسطلا يطرب ، وهيهات حتى يكون مَساقُك عذبا ، وكلامك رطبا ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه والرفيع فتضعه والقبيح فتحسِّنه ، وقال له تابع الإفْليلى : أسمعْنى مثالا ، فقال له ابن شهيد حتى تصف برغوثا فتقول :

« أسودُ زنجىّ ، وأهلىٌّ وحشىّ ، ليس بوان ولا زُمَيِّل (جبان) وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، وشونيزة (الحيَّة السوداء) أو ثبتها غريزة أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب قراد (دُوَيْبَّة) شريه عَبٌّ ، ومشيه وَثْب ، يكمن نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن موئلم ، ويستحل دم كل مسلم ، مساورٌ للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة ، يهتك ستر كل حجاب ولا يحفل بحواب . . شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وكذلك كل برغوث ، وكفى بهذا نقصا للإنسان ، دالاًّ على قدرة الرحمن »

ويعرض على تابع الإفْليلى وصفا بديعا مماثلا لثعلب ، ولفته فى هذا النادى الخاص بالكتَّاب فتى كان يرميه بِطَرْفه . فلما أنهى وصفه للثعلب قال له : تَحَيُّلٌ على الكلام لطيف . وسأل ابن شهيد تابعه عنه فقال له : إنه زُبْدة الحِقَب تابع بديع الزمان ، فصاح ابن شهيد يا زبدة الحقب اقترح علىَّ ما تشاء ، فقال له : صف جارية ، فوصف جارية له ، فأعجبه وصفه فقال ابن شهيد : هلا أسمعتنى وصفك للماء ، فقال زبدة الحقب إنه من البيان المعجز ، فأقسم عليه أن يذكره ، فذكره قائلا : « أزرق كعين السِّنَّوْر (القط) صاف كقضيب البِلَّوْر ، انتُخب من الفُرات ، واستعمل بعد البَيات ، فجاء كلسان الشمعة فى صفاء الدمعة » . ولم يلبث ابن شهيد أن عارضه بقطعة فى وصف الماء يقول فى فاتحتها : كأنه عَصِيرُ صَبَاح ، أو ذَوْب قمر لَيَاح ، (ناصع) ينصبّ فى إنائه ، انصباب الكوكب من سمائه » . ويغضب زبدة الحقب لروعة بيانه ، ويضرب الأرض برجله فتنشق تحت قدمه ويتدحرج فيها ، ويغيب شخصه وينقطع أثره . ويضحك تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب من فعله ، ويشتد غيظ أنف الناقة ، ويسأل ابن شهيد هل له أوصاف فى شعره لا يستطيعها ؟ فيورد عليه وصفا لسحاب ممطر فى إحدى قصائده ووصفا لذئب ، ويصيح فتيان الجن معجبين أشد الإعجاب ، وتعلو أنف الناقة كآبة شديدة ، ويشفق عليه

فتى من الجن فيصفه لابن شهيد بأنه زيرُ علم وحرى به أن يعطف عليه ويرفق به ، فيقول له ابن شهيد : وهل كان يضيره أن يَصْبر لى على زلّة فى شعر أو نثر ولا يعلنها لتلاميذه ، ويجعلها إحدى مفاخره . فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى النذرة ويرد ابن شهيد عليه : بل إنها المرة بعد المرة. ويقول له صاحبا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، وقد بلغ الإعجاب به منهما مبلغا كبيرا : اذهب فانك شاعر كاتب . وانفض الجمع فى وادى الكتّاب ، والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .

ويقول ابن بسام أن ابن شهيد امتد به الكلام واتسع به الإطناب ، فرأى أن يكتفى بهذا القدر من التوابع والزوابع ، غير أنه عاد يقتطف منها فصولا ، واختار فصلا حضر فيه ابن شهيد مع تابعه زهير مجلسا من مجالس الجنّ دار الحديث فيه على ما تعاورته الشعراء من المعانى ومن أخذ المعنى وزاد فيه ومن قصّر ، وحاوره بعض الجن فى أشعار لشعراء مختلفين وأنشد بعض أشعار بديعة له توضح مدى إحسانه فى الشعر ونظمه . ويورد ابن بسام فصلا طريفا من فصول التوابع والزوابع مشى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير فى أرض الجن فأشرفا على روضة فيها قطيع من حُمُر الوحش والبغال ، ولحقت به الحُمر ، وقالت له : تهيأ للحكم ، فسألها ابن شهيد : ما الخطب ؟ فقالت : شِعْران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضينا لك حكّماً ، فقال ابن شهيد : حتى أسمع فتقدمت إليه بغلة شهباء ، عليها جُلُّها (غطاؤها الصائن لها) وبُرْقعها (قناع المرأة) وأنشدته شعرا غزليا لبغل فى صاحبة له وشعرا غزليا آخر لحمار فى أتان أحبّها ووسوس لها نمّام ما جعلها تتغير والحمار يشكو تباريح حبه . فقال ابن شهيد إن أنف الناقة كان أولى بالحكم منى ، وفهمت البغلة أنه فضّل شعر البغل على شعر الحمار ، وقالت لابن شهيد : أما تعرفنى ؟ فقال لها : لو كان هناك علامة ، فنحّت لثامها فإذا هى بغلة أبى عيسى والخال على خدّها ، فتباكى معها طويلا وأخذا فى ذكر ما ضيعهما وأيامهما ، وسألته ما فعل الأحبة بعدى ؟ أهم على العهد ؟ فأجابها ابن شهيد : شَبَّ الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكر الخِلاّن ، ومن إخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة ، فسألته أن يقرئهم السلام . وكانت فى بركة بقربهما أوزّة بيضاء فى مثل جثمان النعامة ، لم يُرَ أخف من رأسها حركة ولا أحسن للماء فى ظهرها صباً ، تثنى رقبتها وتكسر حدقتها فترى الحسن مستعارا منها ، فصاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى . فسأل ابن شهيد زهيرا عنها فقال له : هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف ، وهى ذات حظ من الأدب . فتعرّض لها قائلا :

أيتها الإوزّة الجميلة العريضة الطويلة أيحسن بجمال حَدَقتيك واعتدال مَنْكبيك واستقامة جناحيك وطول جِيدك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام ؟ وأنا الذى همت بالإوزّ صبابة . فدخلها العجب من كلامه واعترتها خفة شديدة فى مائها فمرة سابحة ، ومرة طائرة ، تنغمس فى الماء هنا ، وتخرج منه هناك . وهو فعل معروف من الإوزّ عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرّضت صدرها وعملت بِمِسْجدا فيها ، واستقبلتهما جاثية كصدر المركب فقالت موجهة الخطاب إلى ابن شهيد أيها المغرور كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تحكم الأصول؟ وسألته: ما الذى تحسن ؟ فقال لها ارتجال الشعر والخطب (يريد الرسائل) فقالت له: ليس عن هذا أسألك » . إنما أردت بذلك إحسان النحو وغريب اللغة ، إذ هما أصل الكلام ومادة البيان ، واهتزت من جانبيها ، وجال الماء فى عينيها ، وسألها يا أم خفيف ؛ أيهما أفضل : الأدب أو العقل فقالت : بل العقل ، فقال لها : هل تعرفين فى الخلائق أحمقَ من إوزّة فتطلّبي عقل التجربة إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه حظا فحينئذ ناظرى فى الأدب.

ويبدو من حديث ابن شهيد مع الإوزة وأخذها عليه أنه لا يحسن النحو وغريب اللغة أنها تابعة لخصمه ابن الإفليلى بجانب تابعه أنف الناقة ، وقد رماها بالحمق وقلة العقل ، ودعاها إلى أن تطلب عقل التجربة إذ تفقد عقل الطبيعة : وهو فى كل ذلك يقصد ابن الإفليلى الذى كان يتتبع كلامه ليجد فيه فيه عثرة يذكرها لطلابه . ويؤكد رأينا أن ابن الإقليلى مقصده فى حملته على الإوزّة وأنها تابعته مثل أنف الناقة تابعه ما قاله ابن بسام من أنه هو الذى عرّض به ابن شهيد فى التوابع والزوابع وأنه كان منها الغرض والهدف .

واختلف الباحثون فى التاريخ الذى كتبت فيه رسالة التوابع والزوابع ، فرأى بعضهم أنها كتبت فى مطالع القرن الخامس الهجرى ظنا منه أن أبا بكر بن حزم الذى أهدى إليه ابن شهيد الرسالة هو أخو ابن حزم العالم الأندلسى المشهور على بن أحمد بن سعيد إذ كان له أخ بنفس الاسم: أبى بكر ابن حزم توفى فى أثناء وباء للطاعون بقرطبة سنة ٤٠١ فظن أنه هو الشخص الذى أهدى إليه ابن شهيد الرسالة ، ولم يلاحظ أنه كان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره ، ويبعد أن يكتبها فى هذه السن المبكرة ، وينتفى ذلك يقينا حين نقرأ ترجمة أبى بكر يحيى بن حزم فى جذوة المقتبس عند الحميدى إذ تمضى على هذا النحو : « يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب ، وله فى ذلك ذكر ، وهو الذى خاطبه ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع التى سماها : « شجرة الفكاهة » وهو من بيت

آخر غير بيت الفقية أبي محمد على بن أحمد ابن سعيد بن حزم . وإذن فهو — دون ريب ليس أخا لابن حزم المفكر الأندلسى المعروف ولا هو من أسرته ، إذ هو من أسرة أخرى بشهادة الحميدى . وكثرت ظنون الباحثين فى تاريخ الرسالة ، فقيل ألفها ابن شهيد فى سنة ٤٠٤ ، وقيل ألفها فى عهد الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ — ٤٠٧) بقرطبة ، وقيل بل سنة ٤١٤ إذ فى الرسالة قطعة من مرثية لابن شهيد نظمها فى ابن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة فلا بد أن تكون الرسالة قد ألفت بعد هذا التاريخ . وقيل إنها ألفت سنة ٤١٥ . وجميعها ظنون مخطئة ، إذ يذكر فيها ابن شهيد رثاء له فى الوزير الأديب حسان ابن مالك بن أبي عبدة ، وفى كتاب الصلة لابن بشكوال أنه توفى فى شوال سنة ٤١٦ للهجرة ، وفى ذلك دليل واضح على أن الرسالة لم تؤلف قبل هذه السنة ، وبذلك تتداعى كل الظنون السابقة :

ولما كانت الرسالة تتناول عالماً وراء عالمنا الواقعى هو عالم الجن والشياطين ، وكانت رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى تتناول أيضا عالماً وراء عالمنا هو العالم الأخروى وكل ما يتصل به من حشر ونعيم وجحيم ، وكانا جميعا متعاصرين ، فقد أخذ الباحثون يتساءلون هل تأثر أحدهما بصاحبه فى رسالته ، وكان من السابقين الى إبداء الرأى فى هذا التأثر الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « بلاغة العرب فى الأندلس» إذ قال : « لعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى رسالته الغفران ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شئ » .

ومضى الباحثون بعد الدكتور أحمد ضيف يتساءلون عن تاريخ تأليف الرسالتين ، فلاحظوا أن ابن شهيد ألف رسالته قبل سنة ٤٢٠ للهجرة بينما ألف أبو العلاء رسالته — فيما يظن — سنة ٤٢٤ أو بعدها ، فهى متأخرة عن رسالة ابن شهيد . ومن ثم قالوا إن أبا العلاء هو الذى تأثر بابن شهيد، ومن هؤلاء غَرْسية غوميس فقد زعم — كما نقل عنه بالنثيا فى كتابه تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة الدكتور حسين مؤنس — أن ابن شهيد صوَّر فى رسالته رحلة شاعر إلى الجنة سابقا بذلك المعرى وهو خطأ بين إذ ليس فى رسالة ابن شهيد أى ذكر أو إشارة إلى الجنّة فضلا عن أن تكون رحلة إليها ، إنما هى رحلة إلى عالم الجن والشياطين فلا علاقة له أى علاقة بعالم الغفران الأخْرَوِىّ وكل من يقرأ الرسالتين يعرف — بوضوح — أن رسالة التوابع والزوابع تستلهم ما شاع عند العرب

قديما من فكرة الجن والشياطين التى تلهم الشعراء فى دنيانا ما ينظمونه من الشعر.

بينما رسالة الغفران لأبى العلاء تستلهم عقيدة المعاد الإسلامية وما يتصل بها من الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار واللقاء مع بعض من غفر لهم من الشعراء فى الجنة ورؤية إبليس والزنادقة فى الجحيم ، فلا صلة أى صلة بين الرسالتين وخطأ لا يماثله خطأ افتراض التأثر بينهما أو التأثير.

وواضح كل الوضوح مما قدمت أن رسالة التوابع والزوابع تتصل بما كان يزعمه الجاهليون من أن الجن والشياطين تلهم الشعراء أشعارهم. وبلغ بهم الخيال أن سموا لبعض الشعراء توابعهم ، واشتهر بينهم اسم مِسْحل لتابع الأعشى ، ورووا عنه أخبارا وأقاصيص ، وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى خبر ان عنه نجملهما أما أولهما فيذكر أن شخصاً رحل فى الجاهلية ، فأقبل ليلة ببعيره على بئر يريد أن يسقيه منها ماء ، فاذا عندها نفر مشوَّهون ، وإذا رجل أشد منهم تشويهاً أتاهم ، فقالوا لصاحب البعير : هذا شاعر ، ثم سألوا الرجل أن ينشده بعض شعره فأنشده قصيدة الأعشى : « وَدِّعْ هريرة إن الركب مرتحل » حتى أتى على آخرها لم يَخْرم منها حرفاً فتعرَّض له صاحب البعير يسأله : من نظم هذه القصيدة ، فقال له : أنا نظمتها فتعجب وقال له : لولا ما أنشدت وسمعت لأخبرتك أن الأعشى أنشدنيها العام الماضى بِنَجْران ، فقال له : إنك لصادق ، أنا الذى ألقيتها على لسانه ، وأنا مِسْحل ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند الأعشى.

والخبر الثانى يحكى لقاء طويلا بين الأعشى نفسه وبين شيطانه مِسْحل فى طريقه بأوائل أرض اليمن يريد قيس بن معديكرب بحضرموت لمدحه ، فأصابه مطر ، فرمى ببصره يطلب مكاناً يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خِباء من شَعر فقصده ، وإذا شيخ على باب الخِباء ، فسلم عليه فرد السلام ورحَّب به فحط رَحْله ، ودخل الخِباء فسأله من أنت ؟ وأين تقصد ، فقال له : أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب فقال له حياك الله أظنك امتدحته بشعر ، فقال له الأعشى : نعم فسأله أن يسمعه لهم فأنشده قصيدة يتغزل فيها بمن تسمى سمية ، وفوجىء الأعشى به ينادى : ياسمية اخرجى ، فخرجت فقال لها أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معديكرب وتغزلتُ فى مطلعها بك فأنشدتها إلى آخرها ، وصنع به نفس الصنيع فى قصيدته : « ودع هريرة » حين ذكر له مطلعها ، ونادى على جارية عنده تسمى هريرة فأنشدتها إلى آخرها ، وتحيَّر الأعشى وغشيته رعدة ، فقال له : لا تُرَعْ فأنا هاجِسُك مِسْحل الذى ألقى على لسانك الشعر فسكنت نفسه.

وقد يؤذن مثل هذين الخبرين عن الأعشى وشيطانه مسحل بأن فكرة الجاهليين

عن أن لكل شاعر شيطانا أو رئيا من الجن هى التى أوحت إلى ابن شهيد بصنع رسالته « التوابع والزوابع » .

ومن يقرأ الرسالة : يلاحظ أن ابن شهيد يلقى فيها شياطين امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم ولايلقى شيطان الأعشى مسحلا مع ما ذكر عنه من أخبار مختلفة فى كتب الأدب ، ومعروف أن الأعشى يعد من فحول الشعراء فى الجاهلية ، وهو أحد أصحاب المعلقات العشر ، وأحد المقدمين على سائرهم مع امرئ القيس وزهير النابغة ، وفى رأينا أنه ليست فكرة شياطين الشعراء وما حدث الجاهليون من أخبارهم هى التى أوحت إلى ابن شهيد رسالته ، إنما أوحى إليه بها بديع الزمان فى مقامة بين مقاماته تسمى المقامة الإبليسية ، كما أشرت إلى ذلك قديما فى كتابين لى هما : « المقامة » و« الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ورأيت أن أعود إلى بسط الفكرة وتوثيقها بأدلة جديدة . ،

ومقامة بديع الزمان تدور على أن عيسى بن هشام راوى المقامات أضل إبلا له فخرج فى طلبها ، ومازال يتنقل من واد إلى واد حتى دخل واديا من أرض الجن وهو لايدرى ، واديا أخضر ، به أنهار جارية وأشجار باسقة وثمار يانعة وأزهار ناضرة وبسط مفروشة ، وإذا شيخ جالس فارتاع منه ، فهدأ روعه ، وأمره بالجلوس فامتثل وسأله عن حاله ، فذكر له ضلال إبله فقال له الشيخ : أصبت دليلك . ووجدت ضالتك ، فهل تروى من أشعار العرب شيئا ؟ فقال له : نعم وأنشده أشعارا لامرئ القيس وعبيد بن الأبرص ولبيد وطرفة فلم يطرب لشئ من ذلك . وقال لعيسى ابن هشام : أنشدك من شعرى ، وأنشده قصيدة بديعة من قصائد جرير حتى أتمها ، فقال له عيسى بن هشام : ياشيخ هذه القصيدة لجرير وقد ذاعت وشاعت بين البدو والحضر وتداولتها الألسنة منسوبة لجرير ، فهو صاحبها وناظمها : فقال له دعك مما ظننت ، وأنشدنى شعرا لأبى نواس إن كنت تروى له بعض أشعاره فأنشده إحدى خمرياته ، فطرب لها أشد الطرب . وقال له : امض على وجهك وستلقى رجلا ، ووصف لعيسى بن هشام ما بيد الرجل ملغزا بوصفه لمدية وسراج ثم قال له : ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا الشيخ أبو مرة (لإبليس). ثم غاب عن عيسى بن هشام ولم يعد يراه ومضى عيسى لوجهه ، فلقى رجلا فى يده مدية ، فعرف أنه صاحبه الذى ذكره له أبو مرة وقال له ما سمعه منه ، فناوله سراجا ، وأشار إلى غار مظلم فى جبل ، فقال له : ادخله وفى يدك السراج ، فدخله على هدى السراج ، وما إن خرج من أرض الجن حتى وجد إبله ، فاوى وجوهها وردها .

والصلة واضحة بين هذه المقامة الإبليسية عند بديع الزمان ورسالة التوابع لابن شهيد

إذ هى التى أوحت إليه باطار رسالته ، وأقصد لقاءه بشياطين الشعراء فى أرض الجن . وقد اتسع ابن شهيد بالفكرة وطورها تطويرا بديعا، وجعل للكتّاب فى تلك الأرض توابع كتوابع الشعراء ، وأضاف إلى ذلك ما روى فى الأساطير العربية من تمثل الجن فى صور بعض الحيوان والطير .

ولكن هل من دليل على أن ابن شهيد عرف مقامات بديع الزمان، والأدلة على ذلك فى داخل الرسالة كثيرة، ومن أهمها أن نجد ابن شهيد يلتقى بثلاثتهم — فى رأيه — كبار الكتاب فى العصرين الأموى والعباسى حتى زمنه ، وهم عبد الحميد الكاتب والجاحظ وثالثهم بديع الزمان، فقد طلب إلى تابعة كما مر بنا — أن يلقى توابع الكتاب والتقى بتابعى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، والتقى أيضا بتابع بديع الزمان ، وسماه زُبدة الحِقَب ، وكأن الأيام ظلت طوال العصور تمخض الكتابة والكتّاب، حتى استخلصت الزبدة أو الكاتب الألمعى بديع الزمان : وليس كل ما أوحى به البديع إلى ابن شهيد فكرة أرض الجن ، فقد أوحت إليه مقاماته أن يحاكى منها المقامة المضيرية التى يصور فيها بديع الزمان بعض الأطعمة الشهية وما يتولى من يرونها من سيلان اللُّعاب واتقاد الأكباد ، وقد مضى ابن شهيد — على شاكلته — يضع رسالة فى وصف ألوان من الحلواء وما تودع فى قلوب المشاهدين لها من سُعار الوله والشره ، حتى لتتحرك الألسنة على الشفاه ، وحتى لتلمع العيون وتخفق الأفئدة . وقد عرضها ابن شهيد على تابعى عبد الحميد الكاتب والجاحظ فأعجبا بها إعجابا شديدا ، كما أعجبا بتفننه على طريقة البديع فى وصف البرد والنار والوقود ووصف برغوث وثعلب . والتفت ابن شهيد إلى تابع بديع الزمان : زبدة الحقب فقال له : اقترح علىّ ما تريد ، فاقترح عليه وصف جاريه ، فوصفها واستحسن وصفه زبدة الحقب قائلا : أحسنت ما شئت أن تحسن ، وسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء على لسانه فقال له إنه من المعجز الذى لا يمكن أن يجاريه أحد فيه وذكره له كما مر بنا فى حديثنا عن الرسالة ، ومرت معه معارضة ابن شهيد له بوصف للماء بديع ، وهو عمل شابه بغير قليل من الروح المرحة ، مما جعله يسمى الرسالة كما قال الحميدى — باسم شجرة الفكاهة لما فيها من تهكم ودعابة .

وحرى بى أن أشير إلى ما تصور إيحاءات مقامات بديع الزمان لابن شهيد فى رسالته : «التوابع والزوابع» من سرعة انتقال آثار أسلافنا من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب والعكس ، فهذه مقامات بديع الزمان الهمذانى

الإيرانى تنقل سريعا إلى أقصى الغرب ، إلى قرطبة ، فتلهم ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع ، ونزداد عجبا حين نجد الثعالبى النيسابورى الإيرانى المعاصر لابن شهيد والمتوفى بعده بثلاثة أعوام يترجم له فى كتابه اليتيمة ويذكر ما نوّه به فى التوابع والزوابع من رسائله وأوصافه البديعة ، وكاد الثعالبى لا يترك لابن شهيد معاصرا له فى الأندلس إلا وترجم له مع من ترجم لهم فى جميع الأوطان العربية إذ كان لديه ولدى أسلافنا شعور عام طوال قرون متعاقبة بأن تلك الأوطان جميعا وطن واحد تعمه وحدة أدبية واحدة ، وهو ما نتمنى أن يتحقق من جديد لأوطاننا العربية وأدبنا العربى الخالد .

شوقى ضيف
الأمين العـام للمجمع